﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٥٢﴾ [النمل: 52]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الظُّلم مستوجبٌ للعذاب، فليعتبر بذلك أولو الألباب

لمّا أخبرتِ الآية السّابقة عن تدمير الرَّهط من ثمودَ وقومِهم أجمعين، وكان يتسبّبُ عن دمارهم بهذه الصّورة زيادةُ الهول والرُّعب في قلب كلِّ مُعاند وجاحد يَمضي على دَربهم ويَسلكُ طريقتهم، وبالأخصّ أهلُ مكة؛ لمّا كان ذلك كذلك، حرصتْ هذه الآيةُ على نقلِ صورةِ بيوتهم التي خلتْ من ساكنيها وخَوَتْ على عروشها بسبب ظُلمهم، بعدَ أنْ كانت مرتعًا لهم يَحيكون فيها المؤامراتِ، ويدبِّرون فيها المكايدَ والمخطَّطات، فقال سبحانه: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ فعسى أنْ يعتبر الظّالمون بما جرى لأسلافِهم من أهل الظُّلم والمكر. وأيضًا فإنَّه لما أمرَ تعالى بالنّظَر فيما جرى لهم من الهلاكِ في أنفسهم، بيَّن ذلك بالإشارة إلى منازلهم وكيفَ خلتْ منهم[1] بقوله: ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾؛ فلم يكن العذابُ طبيعيًّا بحيث يهلكُ الكافر ويُهدَمُ دارُه، بل دخل العذابُ والدمارُ إلى الدور، مستأصِلًا أهلَ الدور، وأبقى الدورَ شاهدةً على تلك الصَّيحة التي تصرعُ الإنسانَ فحسبُ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بُيُوتُهُمۡ﴾: (بَيْتٌ) أَصْلٌ واحِدٌ، وهو المَأْوَى والمآبُ ومَجْمَعُ الشَّمْلِ[2]، والبَيْتُ: مَأْوَى الإنْسانِ بِاللَّيْلِ، يُقال: باتَ فُلانٌ، أيْ: أَقامَ بِاللَّيْلِ، ويأْتي بِمعنى إدْراكِ اللَّيلِ، يُقال: باتَ، يَبيتُ، بيْتًا، وبَياتًا،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 14/ 178.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بيت).

ومَبيتًا، أيْ: أَدْرَكَهُ اللَّيْلُ. ومِن مَعانيهِ: المَسْكَنُ والدّارُ، وهو: كُلُّ ما لَهُ جِدارٌ وسَقْفٌ، وإن لم يَكُن بِهِ ساكِنٌ، وجَمْعُهُ: أَبْياتٌ وبُيوتٌ[1]. ومِن مَعانيهِ أيضًا: المَنْزِلُ والقَصْرُ والمَسْجِدُ والكَعْبَةُ والقَبْرُ[2]. والمرادُ بالبيوتِ هنا: جمعُ بيت، وهو مكانٌ يُجعَلُ له بناءٌ وفُسطاطٌ يُحيطُ به، يُعيِّنُ مكانهُ ليتَّخذَهُ جاعلُه مَقرًّا يأوي إليه، ويَستكِنُّ به من الحَرِّ والقَرِّ.

2) ﴿خَاوِيَةً﴾: (خوى) أَصلٌ واحدٌ يدلُّ على الخُلوِّ والسُّقوط[3]، يُقالُ: خَوَتِ الدارُ خَواءً: أقوَتْ، وكذلك إذا سقطَت، وخَوَى النَّجم وأَخْوَى: إذا لم يكن منه عندَ سقوطه مطرٌ، تشبيهًا بذلك[4]. وخَوَتِ المرأة وخَوَيْتُ أيضًا خَوًى، أي: خَلا جوفُها عندَ الولادة[5]. ومعنى ﴿خَاوِيَةً﴾ في الآية: خاليةٌ من السُّكان والأهل، أوْ مُتداعيةٌ إلى السُّقوط.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الظُّلمُ يورِثُ أهلَه الهلاكَ، ويُعقِبُ ديارَهم الخَرابَ

يقول الله تعالى: إنْ كنتَ - أيُّها المخاطب - تريدُ دليلًا على تدميرهم جميعًا، فتلك مَساكِنُ ثمودَ قد صارتْ خَرابًا خاليةً مِن أهلِها؛ بسَبَبِ ظُلمِهم أنفُسَهم بشِركِهم وتكذيبِ رَسولِهم، وقَتْلِهم الناقةَ. إنَّ في ذلِكَ الَّذي فعلناهُ بهم من تدمير وإهلاك لَآيَةً بيِّنة، وعِبرةً واضحةً لِقَوْمٍ يتَّصفون بالعِلْم النّافع، الَّذي يتبَعُه العملُ الصّالح[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة (الفاء) في قوله: ﴿فَتِلْكَ﴾:

نهايةُ الظّالمين دروسٌ للمعتبرين

الفاءُ للتفريع، فرَّع بها جملةَ (تلك بيوتهم خاوية) على جملة:

(1) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (بيت).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بيت).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خوى).
(4) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خوى).
(5) الجوهري، الصحاح: (خوى).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 95، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 13/ 218، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 6/ 200، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 10/ 339.

﴿دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ ورتَّبها عليها، من باب تفريعِ الإخبار[1]، ففرَّع الإخبارَ بخواء بيوتهم بسببِ ظُلمهم، على الإخبار بتدميرهم، لأنَّه مسبَّب عنه ونتيجةٌ طبيعيّةٌ في الواقع، وبهذا التفريع أدركنا أنَّ العذابَ الّذي نزل بثمودَ كان صيحةً يسمعُها الكافرونَ فيهلكونَ ويَسقطون، وأمّا البيوتُ فتبقى صامدةً أوْ يحصلُ لها شيءٌ من التداعي، فيمرُّ بها أهلُ الطّريق فيرونها بيوتًا خاليةً من ساكنيها، فيثير عندَهم العجبَ ببقاء الدور من دونِ ساكنيها. وقيل: الفاء استئنافية[2]، والجملة بعدَها مستأنفةٌ "مقرِّرة لما قبلَها"[3].

دلالةُ التعبير بالإشارة (تلك):

عظمةُ البيوت وفخامتها تعلنُ عجزَها عن حماية المعذَّبين

أوثر التعبير باسم الإشارة (تلك) دون (هذه)؛ لدلالةِ (تلك) على البُعْد، والمرادُ البعدُ في سوء المنزلة، بسببِ "الغضَب على أهلها"[4] لما بدرَ منهم من الكُفر باللّه والظُّلم لصالح ﷺ. كما أنَّ اسم الإشارة يستعملُ لتمييز الشيء أكملَ تمييز وذلك بالنظر إليه لحسّيَّته، وفي هذا التمييز له دلالةٌ على بقاء تلك المنازل محفوظةً خاليةً من ساكنيها، فيراها كلُّ من يمرُّ بأرض ثمود على أنها نموذجٌ واضحٌ للمعذَّبين. ويدلُّ اسم الإشارة للبعيد على أنّها بيوتٌ مميّزة عظيمةُ التشييد محكمةُ البناء فخمةُ الطّراز، ومع ذلك لم تنفعْهم عندما سمِعوا الصَّيحةَ فتساقطوا وهلَكوا.

سرُّ التعبير بالبيوت في قوله: ﴿بُيُوتُهُمْ﴾:

البيوت التي تُشعِر بالاطمئنان عاجزةٌ عن توفير الحماية

قال الرّاغب: أصلُ البيت مأوى الإنسان باللَّيل، لأنّه يقال: باتَ أقامَ بالليل، كما يقالُ: ظلّ بالنهار ثمَّ قد يقال للمسكِن بيتٌ من غير اعتبارِ اللّيل فيه... ويقعُ ذلك على المتّخَذ من حجَرٍ ومدَرٍ وصوفٍ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 285.
(2) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 19/ 367.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 291.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 180.

ووبَر[1]. وكانت بيوتهم مُتَّخَذةً من الحجارة، وبعضُها منحوتًا في الجبال، فكانت على نوعَيْها آمنةً ممكَّنة، وكانَ في التعبير عنها بالبيوت، مع ما حصل لهم من تدمير وإهلاك وفتكٍ بأهلها، أصدقُ التحذير وأبلغُه لمَن يغترُّ من الظّالمين بإمهالٍ له، فيظنُّ أنّه في مأمَنٍ من عذابه وأخذه الشَّديد، وقد قال سبحانه محذِّرًا من أخذه الشديد: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: 102].

دلالة الإضافة في قوله: ﴿بُيُوتُهُمْ﴾:

أشدُّ الأخذ أن يكونَ من حيثُ يظنُّ الأمنَ

دلَّت الإضافةُ في قوله: ﴿بُيُوتُهُمْ﴾ على شدَّة تلبُّسهم بها، وتمكُّنهم منها، واطمئنانهم إليها، فهي تقيهم من الحرِّ والبرد، وتؤمّنهم من كلِّ خوف، حتى أخذَهم الله تعالى أخذَ عزيزٍ مقتدر، من حيث يأمنونَ وبما لا يحتسبونَ، ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾﴾ [الفتح: 7].

سرُّ التعبير بقوله: ﴿خَاوِيَةً﴾:

بقاءُ الدّور بعدَ موت السّاكنين آيةٌ للعالمين وعِبرةٌ للمعتبرين

عبَّر في وصف البيوتِ بعدَ التدمير بقوله ﴿خَاوِيَةً﴾؛ لكونه أبلغَ في التعبير من (خالية)؛ لأنَّ الخلوَّ يعني فقط فراغَ البيوت من ساكنيها معَ بقائها هي، أما قوله: ﴿خَاوِيَةً﴾ فهو أوسعُ دلالةً؛ فإنّه يعني كونها خاليةً من سكانها، كما هو حالُ بعضها، حيثُ بقيت البيوتُ منحوتةً في الجبال مع فراغها من سُكّانها، وأمّا بعضها ممّا كان مبنيًّا بالحجارة، فمع شدّة أركانها، وإحكامِ بنيانها، فقد أصبحت متداعيةً إلى السّقوط، فسبحانَ الفعّال لما يريد، القادرِ على الضَّعيف كقدرته على الشديد[2]. وهذا التركيب ﴿بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ أرسلَه القرآن في عددٍ من آياته مثلًا للخرابِ التامّ، الذي هو سقوطُ

(1) الراغب، المفردات: (بيت).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 180.

سقوفِ البناء وجدرانه، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: 259][1].

دلالة الباء في قوله: ﴿بِمَا﴾:

تعليلُ الإهلاك منهجٌ قرآنيٌّ لإقامة الحُجَّة على الظّالمين

(الباء) في قوله: ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ هي باءُ السببيّة، المشعرةُ بأنَّ ما بعدها، وهو ظلمُهم كان السّببَ في حصولِ ما قبلَها، وهو التدميرُ والإهلاكُ المستأصِل المؤدّي إلى أنَّ بيوتهم خاويةٌ. و(ما) هنا هي المصدريّة، فتؤوّل وما بعدها بمصدر، أي: بظلمهم، والجار والمجرور متعلق بـ﴿خَاوِيَةً﴾.

سرُّ التعبير بالظُّلم في قوله: ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾:

الـظّـلـمُ مـرتَـعٌ مُبتغيه وخيم

كلمةُ (الظّلم) في قوله: ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ مقصودٌ بها المعنى الأعلى للظُّلم، وهو الشركُ بالله تعالى والكفرُ به، إذ هو أعظمُ معاني الظُّلم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: 13]، وبالأحرى فإنَّه يشتملُ أيضًا على ما دون الكفر؛ كالتكذيبِ والمكرِ والإفسادِ وسائر ما فعلَتْه ثمود في مواجهةِ دعوة صالح ﷺ إيّاهم إلى التوحيد وعبادةِ الله وحده، فهذا كلُّه ظلمٌ: ظلمٌ في جانب الله؛ لأنه اعتداءٌ على حقِّ وحدانيّته، وظلمٌ للرسول بتكذيبِه وهو الصّادق المُؤَيَّدُ بالمعجزات، فهذا من مُسوِّغات التعبير بالظُّلم دون غيره من الكفر والتكذيب، كما أنَّ من مُسوِّغاته أيضًا أنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ للظلم أثرًا في خرابِ بلادهم، وهذا معنى ما روي عن ابن عباس أنَّه قال: أجدُ في كتاب الله أنَّ الظُّلمَ يُخرّبُ البيوت وتلا: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾[2].

دلالة التعبير بالفعل الماضي ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾:

عبَّر بالفعل الماضي في قوله: ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾؛ للدلالة على تلبُّسهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 327.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 209، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 286.

الكامل بالظُّلم، وتحقُّقِ وقوعِه منهم بكاملِ أشكالِه، فلا يستطيعونَ منه فكاكًا ولا يقدرونَ على تغييره. ولذا عبَّر بالمصدر المؤوّل فقال: ﴿بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾ ولم يقل: بـ(ظلمهم) تعبيرًا بالمصدر الصريح؛ للدلالة على أنَّ ما حلَّ بهم من عذاب الاستئصال هو ما فعلوه وتحقّقَ وقوعُه منهم من الكفر والتكذيب والإفساد والمكر ونحو ذلك ممّا هو من أفعال الظُّلم، فالتعبيرُ بالزمن الماضي الذي دلَّ عليه الفعلُ مقصودٌ، فإنَّ الله تعالى إنما يرتّبُ وقوعَ الجزاء على تحقُّق وقوع الفعل.

التلبّسُ بالظُّلم والإغراق فيه مجلبةٌ للعذاب الأليم

سرُّ فصلِ قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً﴾:

سرُّ الفصل في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾، هو كونُ هذه الجملة مؤكِّدةً ومقرّرةً لمضمون ما سبقَها، ومعلِّلةً أيضًا للإخبارِ بذلك، وهو كونُ ذلك الإخبار يفيدُ منه أهلُ العلم بحقائق الأشياء وغاياتها، فهم الّذين يعتبرونَ بسُنن الله تعالى في القضاء على مَن تحقّقَ إفسادُهم ولا أملَ في إصلاحهم.

أهلُ العلم والنظر هم المنتفعونَ بالآيات والبراهين

دلالة مباشرة الحرف لاسم الإشارة في قوله: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

في دخولِ الحرف ﴿فِي﴾ المفيد للظرفيَّة على اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ المشارِ به إلى ما ذُكِر من إهلاك ثمودَ وتدميرها، دالٌّ على كفاية هذا السّبب وهو المشارُ إليه، وتمكُّنه من تحقيقِ الاعتبار والاتّعاظ لكلِّ متيقِّظ لحكمة الله في الانتقام من الظّالمين، ولهذا أيضًا عبَّر باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الدالِّ على بعدِ منزلةِ المشار إليه، وهو استئصالُ ثمود، في الإبهار والإقناع بنصر الله لعباده المرسلينَ بالانتقام لهم من ظالميهم، وقوّى هذا المعنى وهذه الكفايةَ تقديمُ الخبرِ الظرفيّ الدالِّ على الحصر والاختصاص، إذ في ذلك العذابِ دونَ غيره تكمن العظةُ والعِبرة.

كفايةُ العذاب المدمِّر دليلًا للعالمين

سرُّ تنكير مدخولِ اللّام في قوله: ﴿لَآيَةً﴾:

المرادُ بكلمة (الآية) هنا ما تدلُّ عليه من معنى العِبرة والعِظة

الكافيةِ المقنعة، وأنَّها وحدَها كافيةٌ في تحقيقِ ذلك، ولذلك أفردَها ولم يضمَّ إليها غيرَها لتكون آياتٍ، وأكَّد نسبةَ كفايةِ ذلك العذاب في كونه آيةً بإدخالِ (لام الابتداء) الدالّ على التأكيدِ، وفي تنكير الآية في قوله: ﴿لَآيَةً﴾ تفخيمُ أمرها، وتعظيمُ شأنها وشأنِ الاعتبار بها، وهكذا اجتمعتْ عدّةُ عناصرَ تركيبيّة في بيان كفايةِ ذلك العذابِ؛ ليكون آيةً لقوم يعلمون، وهي: (إنَّ التوكيديّة، وتقديمُ الخبر الظرفيّ، واسميّةُ الجملة، ولامُ الابتداء، وتنكيرُ المسند إليه وإفرادُه).

يعتبر العاقل من أول آية، والغافل يحتاج إلى تكرار الآيات

دلالةُ اللّام في قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾:

(اللام) في قوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ هي لامُ التعليل والغرض، يعني: آيةً مسوقةً لأجلِهم، أي: لأجلِ إيمانهم إنْ كان لهم علمٌ وعقلٌ ونظرٌ في الآية، وفيه تعريضٌ بأنَّ المشركين الذين سبقتْ إليهم هذه الموعظةُ، إنْ لم يتّعظوا بها، فهم قومٌ لا يعلمون[1]، ولا يبعدُ أنْ تكون (اللام) للاستحقاق، بمعنى أنّ هذه الآية لا ينتفعُ بها إلا المستحقّون لها من أهل العلم والفكر والنّظر، وأمّا الذين يفتقدون العلم والعقل فإنهم لن ينتفعوا بتلك المعجزة من خواءِ الدار من ساكنيها وهَجْر السكان لها مع بقائها وثباتها.

الابتلاء في الدنيا خطاب لمن يعقل من الناس

دلالة التعبير بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ﴾:

لفظُ القوم يدلُّ على عموم الجماعة، فهو أوسعُ دلالةً من التعبير بلفظ (فريق أو طائفة أو جماعة)، وهو في الأصل يطلق على جماعة الرّجال، ويدخلُ فيه النّساء بالغلبة، ففي عامّة القرآن أُريد به الرجال والنّساء جميعا[2] وهو الأنسبُ هنا من غيره؛ لأنَّ علّة الذكر هي الاتصاف بالعلم، وهذا يجب أن يكون عامًّا شاملًا لكلّ مَن يعلمون دونَ تخصيصٍ لهم بفريقٍ أوْ طائفةٍ ونحوها. وفي تنكير

آيـــاتُ الـلـه للعالِمينَ المتأمّلينَ ذُكرانًا وإناثًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 286.
(2) الراغب، المفردات: (قوم).

لفظ ﴿لِّقَوْمٍ﴾ مدحٌ لهم وتفخيمٌ لشأنهم، لكونهم يعلمونَ وينتفعونَ بما يعلَمون.

نكتةُ التعبير بقوله: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾:

العلم النافع المفيد أثرّ للعقل السّديد الرّشيد

المراد بـ(العلم) هنا هو العلمُ بسُنن الله تعالى في الانتقام والاستئصال، وأنّه لا يكون إلّا لمَن لا يُرجى خيرهم، أو المراد به مطلقُ "العلمِ بحَقيقَة الأشياء – وأولاه العلمُ بهذه السُّنن الإلهيّة – وخصَّهم بالذكر؛ لأنّهم المنتفعونَ بها، وإلّا فهي آيةٌ لكلّ أحد"[1]. وهنالك تلازم بين ﴿يَعْلَمُونَ﴾ و(يعقلون)؛ فإنَّ مَن يعلمونَ هم مَن تحلَّوا بالعقل السّديد والنظر الصّحيح، الّذي قادهم إلى العلم المفيد، ولأنَّ المقصود هنا هو حصولُ أثر التعقُّل وهو هنا العلمُ النافع، فقد تمّ التركيزُ عليه والاكتفاءُ به، كما أنّ نقيضَ يعقلون (لا يعقلون)، وهم المجانين، ولم يرد التعريضَ بالكافرين بأنهم مجانين، بخلاف نقيض يعلمون وهو (لا يعلمون) وهم الجهّال، وأراد التفريقَ بين نظرِ الجاهلِ ونظرِ العالم، فخصَّهم بالذكر.

نكتةُ العدول عن (للّذين يعلمون) إلى ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾:

ينتفع بآيات الله من عقل وعلم مآلات أعماله

العدول عن لفظ الموصول (الذين) إلى ﴿لِّقَوْمٍ﴾ وجعل ﴿يَعْلَمُونَ﴾ صفةً له فيه إيماءٌ إلى أنَّ مَن يعتبر بهذه الآية مُتمكِّن في العقل والعلْم، حتى كان ذلك من صفته القوميّة، وأنه قد بلغَ من التمكُّن في هذه الصفة حدَّ الطّبع والسّجيّة، أي: "إنّ ذلك الوصف سجيةٌ فيهم، وأنّه من مكمِّلات قوميتهم، فإنَّ للقبائل والأمم خصائصَ تميِّزها وتشتهرُ بها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [التوبة: 56]"[2] فالمعنى أنَّ في ذلك ﴿لَآيَةً﴾ للّذين سجيّتُهم العلمُ والتعقُّل والنظرُ في المآلات طلبًا لإدراك الغايات.

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 415.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 89، 19/ 286.

دلالةُ التعبيرِ بالمضارع ﴿يَعْلَمُونَ﴾:

الـخـيـر كـلـه في مداومة التعقُّل

فائدةُ التعبير بالمضارع ﴿يَعْلَمُونَ﴾ إفادةُ التجدُّد والاستمرار في الإفادة من نعمة الاتصاف بالعلْم، وإعمالِ العقل في التفكُّر والتدبُّر والتأمُّل والعمل على إدراك الغايات، ولحثِّ هؤلاء على بذل الوسْعِ في المداومة على هذه النّعمة العظمى؛ وفي تكرار التأمُّل مرّاتٍ ومرّاتٍ للانتفاع بها، لأنَّ التكرار وخصوصًا معَ مَن هو كلِفٌ بالعلْم يساعدُ على الوصول إلى فرائد المعاني، فالخيرُ كلُّ الخير في المداومة عليه. كما أن فيه حضًّا لمَن أهملوا نعمةَ العقل والعلم، أنْ يتداركوا ما فاتهم من إهماله، كي يتعقّلوا الأمور، ويحصِّلوا غاياتها وفوائدَها. وفيه كذلك تعريضٌ بالمشركين وأمثالهم ممَّن لم يعتبروا ولم يَفْطَنوا إلى حكمة الله تعالى وسُنَّته في الانتقام من الظالمين - مع تمكُّنهم من هذا - بأنهم قومٌ لا يعلمون؛ لأنهم لا يستعملونَ عقولهم فيما خلقها الله لأجلِه.

دلالةُ حذف متعلَّق ﴿يَعْلَمُونَ﴾:

تحقّقُ الاعتبار لمَن له مسكةٌ من علْم

حذفُ متعلَّق ﴿يَعْلَمُونَ﴾ هنا؛ إما اختصارًا لكونه معلومًا، أي: يعلمون العلمَ الذي يدلّهم على حكمة الله ﷻ في الانتقام من الظالمين والانتصارِ للمرسَلين، أوْ لقصدِ تعميمه، وإمّا لتنزيل الفعل ﴿يَعْلَمُونَ﴾ منزلةَ الفعل اللّازم الّذي لا يفتقر إلى مفعول، بحيث يكون أساسُ الاهتمام هو كونهم ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أي: مُتّصفين بالعلم، أوْ من شأنهم الاتصافُ به، وهو المقصود، وأنّه وحدَه كافٍ في تحصيل الاعتبار. قال أبو السعود: ﴿لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي: - يعلمون - ما من شأنه أن يُعلَم منَ الأشياء، أوْ لقومٍ يتصفونَ بالعلْم[1].

بلاغة التعريض:

مـــدح أهـــل العلم تعريضٌ بأضدادِهم

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ جملة اعتراضية بين متعاطفات تفيد أغراضًا متعددة، منها: الحثُّ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 291، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 209.

على الإيجابيّة والإفادةِ من نِعمةِ العلْم والعقل، ومنها: التعريضُ بأنّ المشركينَ الذينَ سبقَتْ إليهم هذه الموعظةُ إنْ لم يتّعظوا بها فهم قومٌ لا يعلمون[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

البيوت والمنازل والمساكن:

اختلافُ الدلالات باختلاف الاعتبارات

تتقاربُ الدلالات حدَّ الاشتراك بين الألفاظ الثلاثة، كما أنّها تشترك أيضًا فيما بينها في الموضوع، من حيث إنّ كلًّا من (المنزل والبيتِ والمسكَن)، هو مكانٌ للإيواء والمعيشة والاحتماء من عَوادي المناخ حرّا وقَرًّا، وعوادي البشر والحيوانات ونحو ذلك. لكنّ كلٌّ واحد منها يقال باعتبارٍ يختلف عن الآخر، كما ينبئُ عنه هذا التفصيل. فـ(البيتُ) كما يقول ابن عاشور: اسمُ جنس للمكان المتَّخَذ مسكنًا لواحدٍ أوْ عددٍ من الناس في غرضٍ من الأغراض، وهو مكانٌ من الأرض يحيطُ به ما يميزه عن بقيَّة بقعته من الأرض؛ ليكونَ السّاكنُ مُستقِلًّا به لنفسه ولمَن يتبعُه، فيكون مستقرًّا له وكُنًّا يَكُنُّهُ من البرد والحرّ، وساترًا يستترُ فيه عن النّاس، ومحطًّا لأثاثه وشؤونه. وقد يكون خاصًّا وهو الغالب، وقد يكونُ لجماعةٍ مثلُ (دار الندوة) في العرب، و(خيمة الاجتماع) في بني إسرائيل. وقد يكون محيطُ البيت من حجَر وطينٍ كـ(الكعبة ودار الندوة)، وقد يكونُ من أديم مثلَ (القِباب)، وقد يكونُ من نسيجِ صوفٍ أوْ شَعْر، قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾﴾ [النحل: 80]. ولا يكون بيتًا إلّا إذا كان مستورًا أعلاه عن الحرِّ والقَرِّ، وذلك بالسّقف لبيوتِ الحجر وبيوتِ الأديمِ والخيام[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 286.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 708.

وأمّا المساكنُ فجمعُ (مَسكَن) من الإسكان، وهو: جعلُ الشّيء في مسكَن، والمسكَن: محلُّ القرار، يقال: سكنَ فلانٌ البيت، إذا جعلَه مقرًّا له، وهو مَفْعَلٌ اسمُ مكان مشتقٌّ من السُّكون، والسُّكون هو ثبوتُ الشيء بعدَ تحرّك[1]، ويُستعملُ في الاستيطان، نحوُ: سَكَنَ فلانٌ مكانَ كذا، أي: استوطنَه، ومنه قولُه تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي﴾ [إبراهيم: 37][2].

وأمّا المنزل فهو اسمٌ لما يَشْتَمِلُ على بيوت وصحْن مُسقّف ومطبخ، يسكُنُهُ الرجلُ بعياله[3].

خاوية وخالية:

التعبير بـ(خاوية) أبلـغ وأوسـع دلالة من التعبير بـ(خالية)

أَصل (خوى): يدلُّ على الخُلوِّ والتّداعي[4]، وفي الآية الكريمة ﴿فَتِلۡكَ بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ بِمَا ظَلَمُوٓاْ﴾، وعبَّر في وصف البيوتِ بعدَ التدمير بقوله ﴿خَاوِيَةَۢ﴾؛ لكونه أبلغَ في التعبير من (خالية)؛ لأنَّ الخلوَّ يعني فقط فراغَ البيوت من ساكنيها معَ بقائها هي، أما قوله: ﴿خَاوِيَةَۢ﴾ فهو أوسعُ دلالةً؛ فإنّه يعني كونها خاليةً من سكانها، كما هو حالُ بعضها، حيثُ بقيت البيوتُ منحوتةً في الجبال مع فراغها من سُكّانها، وأمّا بعضها ممّا كان مبنيًا بالحجارة، فمع شدّة أركانها، وإحكامِ بنيانها، فقد أصبحت متداعيةً إلى السّقوط، فسبحانَ الفعّال لما يريد، القادرِ على الضَّعيف كقدرته على الشديد[5]. وهذا التركيب ﴿بُيُوتُهُمۡ خَاوِيَةَۢ﴾ أرسلَه القرآن في عددٍ من آياته مثلاً للخرابِ التامّ، الذي هو سقوطُ سقوفِ البناء وجدرانه، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [البقرة: 259][6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 29، 14/ 238.
(2) الراغب، المفردات: (سكن).
(3) الكفوي، الكليات، ص: 239.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خوى).
(5) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 180.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 327.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الأربعون،
سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 40 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-90-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 40 : المجلد الأربعون، سورة النَّمْلِ من الآية 26 إلى سورة القصص الآية 20.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-90-7
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9294238 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»